التربية والحضارة

التربية في الحضارة اليونانية

دكتور سعيد إسماعيل علي

أستاذ أصول التربية

كلية التربية ـ جامعة عين شمس

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

مقدمة

من المقولات التى أصبحت لا تثير جدلاً بين التربويين ، القول بأن التربية هى قرينة الحياة ، تلك المقولة التى يتلقفها مؤرخو التربية ليقولوا بدورهم أن نشأة التربية إنما ترتبط بالتالى بنشأة الحياة ، والمقصود بطبيعة الحال بالحياة هنا ، الحياة البشرية بصفة خاصة.

ومادام الأمر كذلك فاننا نستطيع بالتالى أن نقول بأنه ما من مجتمع إلا وقد شهد تربية منذ سنوات تكوين هذا المجتمع واحتلاله موقفاً على خريطة النشاط البشرى .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا هذا الاهتمام والتركيز عل التربية عند قدامى اليونان ؟ .

الحق أن التربية عند اليونان فيما قبل الميلاد ليست مجرد مرحلة تاريخية تماثل ما شهدته مجتمعات أخرى ، إذ هى(علامة حضارية) ضخمة على طريق التقدم ، فهى فارقة بالنسبة لما قبلها ، موجهة ومؤثرة على ما بعدها.

ولعل أهم ما يميز هذه التربية هو هذا الطابع (التنظيرى) الواضح للمسألة التربوية فى كثير من جوانبها .

صحيح أن التربية (سلوك) و (عمل) وأن أى سلوك ، وأى عمل لابد أن يقوم على (موقف فكرى) و (تصور) ، سواء كان ذلك شعوراً به أم لا ، لكن فضل فلاسفة اليونان أنهم جعلوا هذه (التصورات) موضع تأمل وتفكير ، وموضع بحث ومناقشة .

ومن هنا تجىء هذه الدراسة التى نقدمها للقارىء أملين بها أن نسد ثغرة فى بنية التأريخ التربوى فى كتاباتنا .

والله ولى التوفيق .

سعيد إسماعيل علي

النهرست	صفحة
الفصل الأول : المسرح البيئى والاطار الحضارى ..... أهمية الحضارة اليونانية ٣ـ بعد المكان ١٤ـ الأصول الجنسية ٢٣ ـ البعد الزمانى ٢٦ ـ البنية المجتمعية ٣١ ـ العطاء الحضارى ٣٤ ـ الأبعاد التربوية للموروث الاجتماعى والثقافى ٥١	٣ـ ٦٩
الفصل الثاني : واقع التعليم ..... التعليم فى أسبرطة ٧ ـ التربية الأثينية ٨٤	٧٠ـ ٩٩
الفصل الثالث : السوفسطائيون	١٠٠ـ١١٥
الفصل الرابع : سقراط	١١٦ـ١٣٥
الفصل الخامس : أفلاطون ..... الأسس الفلسفية ١٤٤ ـ الموقف التربوى ١٥٦ ـ أهداف التربية ١٥٨ ـ طبيعة التعليم ١٦٠ـ نظام التعليم فى الجمهورية ١١٤ ـ التعليم فى دولة (القوانين) ١٧١ـ تعليم المرأة ١٧٥ ـ التربية الجمالية ١٧٨ .	١٣٦ـ١٨٣
الفصل السادس : أرسطو ..... موقعه من تاريخ الفكر ١٨٤ ـ الأسس الفلسفية ١٨٩ ـ الأخلاق والتربية ٢٠٢ .	١٨٤ـ٢٢١
الفصل السابع :غروب التربية اليونانية ..... الرواقية ٢٢٤ ـ الأبيقورية ٢٢٩	٢٢٢ـ٢٣٣

أهمية الحضارة اليونانية

السمة السائدة لمعظم إن لم يكن لكل ما كتب عن التربية والحضارة عند اليونان هى « الانبهار» الذى تجلى فى جمل وعبارات تمتلىء بآيات التقدير والإعجاب . ولو كان الأمر يقف عند هذا الحد ، لما كان هناك غبار على ذلك ، وإنما تعداه إلى قدر غير قليل من المبالغة التى أرجعت التقدم الحضارى (اليونانى) إلى عبقرية خاصة تفرد بها الاغريق دون سائر الأمم والشعوب .

وإذا كان مثل هذا الاتجاه « مفهوماً » عندما نجده فى كتابات الغربيين إلا أننا وجدناه كذلك عند عدد من « الثقاة » من مفكرى وعلماء الأمة العربية ، وإن لم نعدم نفرا آخر ، اذ أقر بالعبقرية اليونانية إلا أنه أكد على استحالة البدء من نقطة الصفر فى التقدم الحضارى ، فهو بطبيعته ، عملية « تراكمية » يضيف فيها أبناء اليوم جديداً إلى ما سبقهم إليه أبناء الأمس.

ومن أبرز الأمثلة التى يمكن أن نسوقها على « الانبهار » ، ذلك الذى كتبه فيلسوف انجلترا الحديثة الشهير « برتراند رسل » ، اذ نجده يكتب قائلاً :

« لن تجد فى التاريخ كله ما يثير الدهشة ، أو ما يتعذر تعليله، أكثر ما يدهشك ويتعذر عليك ، تعليل الظهور المفاجىء للمدنية اليونانية . نعم إن عناصر كثيرة مما تتألف منه المدنية كانت موجودة قبل ذلك بآلاف السنين فى مصر وما بين النهرين ، وانتشرت من هناك إلى الأقطار المجاورة لكن بقيت تنقص الإنسان عناصر أخرى ، حتى جاءه بها اليونان . وليس منا من لا يعلم ما أداه اليونان فى الفن والأدب على

عظمته ، فهم الذين اخترعوا الرياضة ، والعلم، والفلسفة اختراعاً ، وهم أول من كتب التارخ متميزا عن مجرد سرد الأخبار ، وهم الذين أرسلوا الفكر حراً فى طبيعة العالم ونهاية الحياة ، دون أن يغلوا أنفسهم بقيود العقائد الموروثة ، وكان ما صنعوه فى ذلك من الروعة بحيث ظل الناس حتى عصور حديثة جداً يكتفون ازاء العبقرية اليونانية بفتح أفواههم دهشة وبالحديث عن تلك العبقرية كما يتحدثون عن ألغاز السحر ، وعلى ذلك ففى مستطاعنا أن نفهم تطور هؤلاء اليونان فهما علميا ، وجدير بنا أن نفعل ذلك . (١)

ويكرر (رسل) نفس الرأى فى كتاب آخر . ونحن اذ نشير إليه فلأنه يحمل (تفسيراً) لما يذهب إليه فيلسوفنا الشهير ، فهو يعترف بأن الحضارة اليونانية « حضارة متأخرة بالقياس إلى حضارات العالم الأخرى اذ سبقتها حضارتا مصر وبلاد ما بين النهرين بعدة ألوف من السنين... » (٢)

كذلك يعترف « ولقد توصلت مصر القديمة وبابل إلى بعض المعارف التى اقتبسها الاغريق فيما بعد ...»

ولكنه يسارع إلى القول : « ولكن لم تتمكن أى منهما من الوصول إلى علم أو فلسفة . وهو لا يريد التوقف عند تفسير البعض بأن ذلك قد يكون راجعاً إلى افتقار العبقرية لدى شعوب هذه المنطقة ، أو إلى أوضاع اجتماعية ، فالعاملان معاً « كان لهما دورهما بلا شك ، وإنما الذى يهمنا هو أن وظيفة الدين لم تكن تساعد على ممارسة المغامرة

---

(١) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ج١ ، ١٩٥٤ ، ص٢٣

(٢) برتراندرسل : حكمة الغرب ،ترجمة فؤاد زكريا ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٦٢) ، فبراير ١٩٨٣ ، ج١ ، ص٢٢ .

العقلية »[1] !

وهكذا يبرز التفسير الأهم عند رسل ، فالتفكير الدينى الذى سيطر على حضارات الشرق قد « غلّ » العقول ، بينما أدى التحرر منه فى اليونان إلى انطلاقها فابتكرت وأبدعت وتفردت .

ومن بين علمائنا نجد من لا يقع أسيرا للانبهار ، فهو اذ يعترف للعبقرية اليونانية بابداعاتها ، يلمح إلى أن ذلك كان « استمراراً » ، و «تواصلاً » لحضارات سابقة ، وإن كانت هذه العبقرية اليونانية قد تميزت بالشموخ والابتكار والطفرة الحضارية ، يقول[2] : « إننا ازاء الاغريق نجد أنفسنا أمام شعب عبقرى أوضح بشكل حاسم أن للعقل البشرى أهدافاً محددة بعينها ، وصاغ لنفسه فكرة جديدة تماماً عن سمات الحياة البشرية ، هذا الشعب الذى أخذ من حضارات الشعوب الأقدم التى سبقته فى مضمار الحضارة ، وأفادمما أخذ فائدة كبيرة ، كان على وعى بها وعرفان ، ولكنه عمد إلى إعمال الفكر طليقاً من كل القيود ، وكان منطلقه فى البحث تجريدياً يستهدف حقائق الأشياء أولا قبل الفائدة العملية التى يتبعها تطبيق نتائج البحث فى أغراض الحياة اليومية، لذلك رأينا الإغريقى يطرح فى مجال البحث أكثر المسائل والمشكلات التى لاتزال تواجه الإنسان فى العصر الحديث ، ويواجه بشجاعة ذهنية كثيراً من مشكلات البحث أو يسعى إلى ايجاد حلول لها ، ومنها مثلا ، أسس الديمقراطية ومشكلات تطبيقها ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، وحرية هذا الفرد وموقفه من السلطة الحاكمة ، هذا بجانب

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) عاصم أحمدحسين : المدخل إلى تاريخ وحضارة الاغريق ، القاهرة ، نهضة الشرق ، ١٩٩١ ، ص ١ .

تأمل مجرد وتفكير فى مشكلات الوجود ، وهو تفكير قدم لها قدراً هائلاً من الفلسفة ، التى هى أكثر الجوانب اشراقاً فى التراث الإغريقى بصفة عامة، والتى تعد قمة الترف العقلى . ومن ناحية أخرى ، فإن المعانى الإنسانية ، الخالدة المتضمنة فيما جاءت به قرائح شعراء الاغريق وصاغته أيدى فنانيهم ، قد جعلت من الأدب والفن الإغريقيين تراثاً عاماً يقرأه الجميع أو يشاهدونه فيلقى أعظم الاستجابة ، وينال أبلغ الإعجاب .

أما ما كتبه (وهيب سمعان) ، فهو يمثل صورة واضحة من الانبهارو الافتتان ، اذ كتب يقول :

« إن الجنس البشرى لا يكاد يجد شيئاً فى ثقافته الدنيوية ـ اللهم إلا آلاته ـ ليس مدينا به لليونانيين (!!) فالألفاظ الدالة على المدارس والملاعب ، والحساب ، والهندسة ، والتاريخ، والبلاغة ، وعلوم الطبيعة والأحياء ، والتشريح ، والصحة ، والشعروالموسيقى ، والمآسى والمسالى، والفلسفة ، والدين ، وعلم الأخلاق ، والسياسة ، والمثالية ، وحب الإنسانية ، والاستبداد والديمقراطية ، كل هذه الألفاظ يونانية لصور من الثقافة لم تنشئها نحن انشاء ، بل إنها نضجت وترعرعت ـ خيراً كان ذلك أو شراً ـ بفضل نشاط اليونان العظيم » .والمشكلات التى تقض مضاجعنا فى هذه الأيام كاجراء التجارب على الجديد فى الأخلاق والموسيقى ، ونظم الحكم ، وفساد السياسة ، والاعوجاج الخلقى ، والنزاع بين الدين والعلم ، وحروب الطبقات ، والنزاع بين الفردية والشيوعية ، وبين الشرق والغرب ، ومشكلات التعليم ، الأولى منها والثانوى ، والعالى ، وتنظيمه والإشراف عليه ، وتمويله ، وأهدافه ومناهجه ، كل هذه الأمور قد اضطربت بها لتتعلم منها الإنسانية وتفيد

منها فى حياتها . وقصارى القول أنه ليس فى الثقافة اليونانية شيئ لاينير للإنسان سبل حياته ». (١)

ومع اعتراف يوسف كرم ، بأن الأمم الشرقية قد استخدمت العقل فى الماضى السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون، ولقنتها لليونان ، فأغنتهم عن بذل الجهد والوقت فى استكشافها بأنفسهم «وفضلاً عن الفنون والعلوم ، نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً دينية وأفكاراً فى العالم والحياة ، اذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها ورأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفية ، فلقد نظروا فى أسمى المسائل ، مثل الوجود والتغير والخير والشر والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيمابعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها ، أو أصلا قد تكون نبتت منه » .(٢)

لكن مؤرخنا ، مع هذا ، يعود ليؤكد « غير أننا إذا لحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين ، لم ندع هذا الضرب من المعرفةوالتفكير علماً وفلسفة ، بل دعوناه ما قبل العلم والفلسفة ، فإن علومهم جميعا ، من حساب وهندسة وفلك وغيرها ، لم تكن تعدو ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية ، وفيها تعثر وتردد يدلان على أنه لم يكن لدى أصحابها أية فكرة عامةعن المبادىء والعلل

---

(١) وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٤٦ ، ص ص التصدير .

والبرهان » .[1]

وأخطر ما يستند إليه يوسف كرم هو هذا النص الذى ينقله عن أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٥١ ـ ٤٤٠هـ ـ ٩٦٢ ـ ١٠٤٨ م) فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة ، فى العقل محمود أومرذولة » ، فالبيرونى كان قد وعى العلم القديم كله وخبر الهند ووقف على (مقولاتها) ، فهو يقول : [2]

وكانوا (أي الهنود) يعترفون لليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه .. كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ بعجمتى فيما بينهم وقصورى عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهتديت قليلاً لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية فى الحسابات ، فانثالوا علىّ متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين .. فكادوا ينسبوا فنى إلى السحر .. أقول ، أن اليونانيين .. كانوا على مثل ما عليه الهنود من العقيدة .. (ولكنهم) فازوا بالفلاسفة ... تقحوا لهم الأصول... ولم يكن للهند أمثالهم ممن يهذب العلوم ، فلا تكادتجد لذلك لهم خاص كلام إلا فى غاية الاضطراب وسوء النظام.. أنى ما اشبه ماكتبهم من الحساب ونوع التعليم إلا بصدف مخلوط بخزف .. والجنسان عندهم سيان اذ لامثال لهم لمعارج البرهان » .

ولأن « الفلسفة اليونانية » ، تكاد أن تكون بغير مبالغة ـ ما يمكن تسميته ـ « جوهرة التاج الحضارى » لليونان ، فقد حظيت بالتنويه والتقدير أكثر من غيرها من مجالات الحضارة اليونانية ، مع الحرص

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة ص / ح .

(٢) المرجع السابق ، التصدير ، ص / د .

الداخلى لدى كثيرين على التأكيد على أن الجهد اليونانى فيها يمثل بالفعل نقطة البداية فى تاريخ الفلسفة فى العالم بدون استثناء ، وعبر كافة العصور .

فهذا (وولتر ستيس W.Stace) بعد أن يفند رأى القائلين بالأصل الهندى للفلسفة الييونانية ، ثم ينفى أن يكون لها أصل مصرى ، ينتهى إلى القول « إن أصل الفلسفة اليونانية ليس قائماً فى الهند أو مصر ، أو أى قطر خارج اليونان ، لقد كان اليونان أنفسهم هم وحدهم المسؤولين عنها وليس الأمر كما لو كان التاريخ يرتد بفكرهم فحسب إلى موضع كان عنده متطوراً من قبل ولا يستطيع تفسير بداياته. اننا نعرف تاريخ الفلسفة اليونانية منذ المهد ، اذا جاز لنا القول بذلك ، وفى الفصلين القادمين (*) سوف نرى أن المحاولات اليونانية الأولى ، كانت إلى حد كبير محاولات لفكر مبتدىء ، فكانت فجة بلا تشكيل أو ملامح ، وسيكون من الضلال افتراض أنهم لم يقوموا بهذه المحاولات البسيطة لأنفسهم ، ومن هذه البدايات الفجة نستطيع أن نتتبع التطور الكلى بالتفصيل حتى دورته عند أرسطو وما بعد أرسطو ، ومن ثم ليست هناك حاجة إلى افتراض وجود تأثير خارجى فى أى موضع ».(١)

أما فيلسوفنا المصرى المعاصر ، عبد الرحمن بدوى ، فإنه يؤكد رأيا يعتبره (نهائياً) « وهو أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ متأثرة بأفكار شرقية ، وانما نشأت نشأة طبيعية من خصائص الشعب اليونانى نفسه ، ومن الظروف الحضارية التى وجدت فى القرن السادس قبل الميلاد فى بلاد

(*) من المرجع الذى نستشهد بنصه هذا .

(١) وولتر ستيس : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٨٧ ، ص ٢٣ .

اليونان » (١)

والغريب بالنسبة لفيلسوفنا ، إنه إذ يقر أن هذا الذى انتهى إليه ، كاد الرأى أن يستقر عليه فى الأوساط العلمية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، واذ يقر كذلك بأنه من عشرات السنين الأولى من القرن العشرين بدأت النزعة « نحو ارجاع التفكير اليونانى إلى تفكير شرقى » ويسوق أمثلة لذلك ، فإنه مع ذلك يؤكد إنه مستمر على رأيه « وهو أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ عن فلسفة شرقية فرعونية ».(٢)

فإذا ما جئنا إلى (التربية) ، فإننا نجد (مفرو) يشير إلى « أن أهمية التربية اليونانية ترجع إلى أننا نجد فيها فكرة ناضجة عن الحياة ومستواها ، نشأ عنها نضج الفكرة التربوية نضجا يتزايد فى الفترات المقبلة ويسمح بكل تغيير ويمهد لنمو الفرد وتطوره : ولما كان نمو النظم الاجتماعية أو تعديلها يأتى غالباً من انحراف الأفراد عن التقاليد المتبعة ، فإن النجاح أو التقدم لا يتحقق إلا اذا كان مثل هذا الانحراف مقبولاً وأصبح نظاماً ثانياً يتمسك به الشعب اذا ثبتت صلاحيته، فلأول مرة فى الوجود ، نجد فى التربية اليونانية نظاماً لا أثر فيه لكبت الذاتية سواء أكان هذا الكبت شعورياً أو غير شعورى ، بل إننا على العكس من ذلك نرى أن هذه التربية تنظر إلى تشجيع الذاتية لها باعتباره منسجماً مع الاستقرار الاجتماعى ورفاهية المجتمع فحسب ، بل باعتباره أمراً مرغوباً فيه أيضاً » (٣)

والحق أن المقام يطول بنا لوحاولنا أن نناقش الدعاوى المختلفة التى

---

(١) عبد الرحمن بدوى : ربيع الفكر اليونانى،القاهرة،النهضة المصرية،٩٤٦، ص ٨٤.
(٢) المرجع السابق ، ص٨٥
(٣) بول مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ٥.

سيقت من منطلق (الانبهار) بالحضارة اليونانية ، لكن ذلك لا يعفينا بطبيعة الحال من تسجيل بعض النقاط التى نرى أنها ضرورية :

* إن ما تستحقه الحضارة اليونانية من التقدير والاعجاب أمر لا ينبغى أن يخضع للجدل والمناقشة ، فالفلسفة اليونانية بالفعل هى الانجاز الأكبر ألقت بظلها على الفكر الفلسفى عبر عصور التاريخ المختلفة وآثارها واضحة على الجميع سواء بالموافقة أو المعارضة . وهذا الانجاز الفلسفى اتسم بالابداع والابتكار ، والسعة والشمول ، والاستناد إلى الأسس العقلية والحجج المنطقية والعمق فى التفكير مما يجعل البون بينه وبين أى جهد سابق بوناً شاسعاً

وقل مثل ذلك فى الفن ..

وكذلك فى الأدب ..

* ولكننا ، بدون أن ننكر على الفكر اليونانى أصالته، لابد من أن نعترف بفضل الشرق على الحضارة اليونانية بوجه عام ، وخاصة أن اليونان أنفسهم قد اعترفوا بفضل الشرقيين عليهم ، ليس فقط فى العصر السكندرى ، بل من قبل ذلك منذ هيرودوت الذى قال إن الدين والحضارة قد أتت اليونان من مصر ـ كذلك حين يذكر أفلاطون مصر ، فإنه يتحدث حديثا يفيض بالاعجاب والاحترام ، وهو يروى فى احدى محاوراته عن صولون ، عبارة الكاهن المصرى الذى خاطب بها اليونان فقال لهم « أيها الاغريق إنكم أطفال » . أطفال إن قورنوا بأمة عريقة فى الحضارة كمصر . (١)

كذلك يذكر أفلاطون وأرسطو أن الرياضيات قد نشأت فى مصر

---

(١) أميرة حلمى مطر : الفلسفة عند اليونان ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ١٩٦٥ ، ص ١٢ .

حيث توفر لكهنتها الفراغ الضرورى للتفكير .

وقد أرجع أكثر اليونانيين علم (طاليس) وفيثاغورس بالرياضة إلى قدماءالمصريين.

* أما اذا نظرنا من جهة أخرى إلى منشأ الفلسفة اليونانية ، فإننا نلاحظ انها قد نشأت فى أيونية ، وهى ملتقى العناصر اليونانية الليدية بالبابليين والشرقيين على العموم ، هذا فضلا عما نجده فى بعض المذاهب الفلسفية من تشابه ونظريات كانت شائعة فى الشرق مثل نظرية التناسخ وخلود النفس(١) .

* نرى المدنيات الشرقية قد ضربت بسهم وافر فى التقدم والرقى الفكرى والعمرانى ، حيث أمدت العالم القديم بأسس الحضارة التى عاشها بعد ذلك ، كالحضارة المصرية والعراقية ، فمثل هذه الحضارات أسبق فى الوجود من حضارة الاغريق ، وفى الدراسات الحديث نرى وجه الشبه واضحاً كما نرى العلاقة القوية بين بعض ما تحتويه هذه الحضارات الشرقية القديمة وبين التراث الإغريقى، على سبيل المثال ، نرى طاليس أول الفلاسفة اليونانيين يجوب بلاد الشرق ويقيم فى آسيا عدة سنين ، بعدها ينقل لبلاد اليونان أفكار هذه الحضارات ، وبالذات أفكار الكهنة من المصريين القدامى . هكذا تثبت الاكتشافات وحفريات علماء الآثار الذين تخصصوا فى حضارة ما بين النهرين (العراق) والحضارة المصرية القديمة وجه الشبه القوى .(٢)

إن هذا يجعل كفة من يرجعون نشأة الفلسفة إلى الشرق قوية . إن

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣ .

(٢) عبد المعبود مصطفى سالم ، المدارس الفلسفية اليونانية قبل أرسطو ، القاهرة مطبعة الأمانة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٦ .

التشابه واضح وقوانين نظرية طاليس فى نشأة العالم ، فالمبدأ الأول عنده الماء ، منه خلق كل شيء ، فـأى تشـابه هذا الذى يوجـد بينه وبين بداية قصيدة الخلق الكلدانية الدينية والتى كتبت قبل طاليس بعدة قرون فى بلاد ما بين النهرين ؟ إنهـا هى الأخرى قد صرحت بـأن كل شيء فى الكون منشأه الماء.

وبالمثل ، نرى التراث المصرى القديم قد حرى قصة قديمة تنص عل أنه « فى البـدء كـان المحيط المظلم أو الماء ، حـيث كـان « آتون وحده، الإله الأول ، صانع الالهة والبشر والأشياء فهذا وجه شبه آخر بين طاليس بنظريته فى بدء الخلق وبين ما جاء فى تلك القصة المصرية القديمة .

اننا إذا أضـفنا إلى هذا التـشـابه الواضح السـبق الزمنى لهـذه الحضارات الشرقية على فلسفة طاليس ، مع العلم بأنه كانت توجد صلات تجارية واجتماعية بين تلك المناطق المختلفة ، فإن هذه الأسباب مجتمعة تعطينا اشارة قوية وواضحة بأن طاليس بلا شك قد تأثر بهذه الأفكار وإنه لم يكن مبتكراً تماماً لهذا الفكر (١)

* يسجل فيلسوف ألمانيا الأشهر (هيجل) أن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدوم الأجانب، وكان الاغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان فمن شعوب الشرق تعلموا الزراعة واستخدموا الحديد وصناعة الغزل والنسج واستئناس الخيل، بل أن كثيراً من مدنهم الهامة قد أسسها أجانب ، فأثينا ، وهى لفظ غير يونانى ، قد أسسها مصرى يدعى سيكرويس (cecrops) ، وطيبة أسسها كادموس (cadmos) ، وهو فينيقى ، وفى رأى آخر إنه أحد الأمراء المصريين ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وذلك فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .(١)

* إن كتاب الغرب قد حملوا الاغريق هذا الاستعلاء الفكرى على الحضارات الآخرى المعاصرة لهم وأكثرهم منه براء وأن كانوا أشاروا إلى الأجانب على أنهم برابرة (Barbara كلمة ترجع إلى أصل سنسكريتي واشتقت منها كلمة Bulbus اللاتينية وكلتاهما تعنى التمتمة أو التلعثم فى النطق) . فلم يكن اللفظ ينطوى فى مفهومه لديهم على ازدراء، لانه يندرج تحت الأجانب كثير من القبائل الإغريقية التى لاتنتسب إلى الحضارة الهيلينية ، بل إن بدء استخدام اللفظ ، يشير إلى أن هذه القبائل لم تكن تحسن نطق اللغة اليونانية كما ينطقها أهل (هيلاس) كانوا يتلعثمون، فسخر منهم الهيلينيون (Bar-bar-ous) كما نسخر ممن يتهته ، فسموا برابرة ، فلا يشبه التقسيم إلى أغريق وبرابرة تقسيم اليهود شعوب العالم إلى يهود وهم شعب الله المختار وأمميين ، لأن الاغريق لم يشكلوا مجتمعا مغلقاً ، فى أية مرحلة من تاريخ حضارتهم حتى يشعروا بالاستعلاء ، كانوا متفاعلين مع فكر الآخرين ، بل تقبلوا ديانات غيرهم ، وقدموا القرابين إلى الآلهة المجهولة أي آلهة الشعوب الأخرى (٢) .

بعد المكان

اذا ما انتقلنا إلى الشمال الشرقى بصفة خاصة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وشماله بصفة عامة ، انتقلنا من فورنا إلى حلبة التاريخ اليونانى . ويقول أفلاطون عن بنى وطنه الذين استقروا فى هذا الميدان :

(١) أحمد محمود صبحى : فى فلسفة الحضارة ، الحضارة الأغريقية ، الاسكندرية مؤسسة الثقافة الجامعية ، د. ت ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨.

« لقد نزلنا فى شواطىء هذا البحر ، كما تنزل الضفادع حول بركة الماء».

على هذه الشواطىء النائية ، أنشأ اليونان قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، مستعمرات مزعزعة غير وطيدة الأساس ، يحيط بها البرابرة من جميع الجهات : فى همرسكوبيوم (Hemeroscopium) وامبورياس (Ampurias) فى اسبانيا ، ومرسيليا ونيس فى فرنسا ، وفى كل مكان تقريباً بايطاليا وصقلية ، وأنشأ المستعمرون اليونان مدناً زاهرة فيى فتورينى (Cyrene) بشمال أفريقيا ، وفى نقراطس بشمال مصر ، وبعثت مغامراتهم النشيطة الحركة والحياة فى جزائر بحر ايجه ، وشواطيء آسيا الصغرى فى ذلك الوقت البعيد ، كما تبعثها فيها هذه الأيام ، وشادوا مدناً كبيرة وصغيرة لتكون محاط لتجارتهم الواسعة على شواطىء الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود . ولم تكن أرض اليونان الأصيلة إلا جزءاً صغيراً من العالم اليونانى القديم.(١)

إن أول ما يطالعنا عند النظر إلى خريطة طبيعية لبلاد اليونان هو طبيعة الأرض التى كانت مسرحاً لأحداث التاريخ الإغريقى الباكر ، وهى شبه جزيرة البلقان ، فطبيعة هذه الأرض جبلية بحرية ، فالجبال تكتنف سطح اليابسة من كل جانب ، ومياه البحر موغلة فى اليابسة ، وقد أسهمت الجبال والبحر فى تمزيق السطح تمزيقاً شديداً (٢) ، فالجبال عبارة عن سلسلة تعرف باسم جبال (بندوس) والتى تبدأ من غربى البلقان وتخترق شبه الجزيرة فى اتجاه جنوبى شرقى ، ويتفرع من

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، م٢ ، ج١ ، حياة اليونان (٦) ، ص ٩ .

(٢) عاصم أحمد حسين : المدخل إلى تاريخ وحضارة الاغريق ، ص٤٩ .

سلسلة جبال بندوس شعاب جبلية تتجه شرقاً وتضم كل الجانب الشرقى من شبه الجزيرة.

وكانت النتيجة أن أصبح أكثر من ثلاثة أرباع المساحة جبلياً ، وبالرغم من أن هذه الجبال ليست فى مجموعها شاهقة الارتفاع ، فإنها كانت تشكل حواجز طبيعية بين الأجزاء السهلة القليلة التى لم تكن تجاوز خمس مساحة اليابسة، بحيث أصبح الانتقال من مكان إلى آخر غير ميسور ، وكانت الممرات التى بالجبال لا تيسر سبل الاتصال ، والدليل على ذلك إن جبال جرانيا (Gyranius) تقع بين منطقتى كورنثة وأتيكا والطريق الوحيد الموصل بين المنطقتين غير هذه الجبال عبارة عن ممر ضيق يمتد إلى الحافة الشرقية لهذه الجبال ويتراوح ارتفاعه بين ستمائة وسبعمائة قدم ، مما يعرض عابرى هذا العمر لأخطار الرياح التى تندفع أحياناً كثيرة بعنف ناحية البحر ، فضلاًعن أن هذا الممر يضيق فى بعض أجزائه بصورة تعيق المرور نهائياً .(١)

كما أن جبل كيثايرون (Kithairion) يمتد على حافته ممر يصل بين منطقتى « كورنثة وبورتيا » لكن أحد المصادر القديمة يردد مايفيد خطورة عبور هذا الممر ، ومثل هذا القول يصح على جبال البلقان ولقد كان من الممكن أن تقوم الأنهار والمجارى المائية بتيسير الاتصال على نحو ما ، غير أننا نجد أن أكبر الأنهار الصغيرة فى شبه جزيرة البلقان غير صالح للملاحة إلا فترة قصيرة من السنة ، أما الأنهار الصغيرة فهى مجرد مجارى مائية قليلة المياه قصيرة المجرى .

وكما أن الجبال تكتنف سطح شبه الجزيرة ، فالبحر يكتنفها .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٠

كل جانب ويتوغل فى اليابسة ، فيجعل السواحل مسننة كثيرة التعاريج ، عالقة بالخلجان وبالجزر وأشباه الجزر ، بل إن البحر يكاد أن يقسم شبه جزيرة البلقان قسمين كبيرين، عن طريق ذلك الخليج العميق الذى يفصل شبه جزيرة البلوبونيز عن بلاد الاغريق الوسطى والشمالية ، وهو خليج كورنثة .(١)

وإذا نظرنا إلى خريطة للعالم القديم لنطلع على جيران بلاد اليونان القديمة ، نجد أولا الاصقاع التى دخل منها إلى تلك البلاد كثير من الغزاة فوق تلال إبيروس (Epirus) وعلى طول وديانها . و ما من شك فى أن أسلاف اليونان قد اقاموا فى تلك الأماكن كثيراً من السنين، لأنهم أنشأوا ددنا (Dodona) مزاراً لزيوس إله السماء المرعد . وكان معظم أهل ابيروس فى أيام هومر يتكلمون اللغة اليونانية ويتبعون الأساليب اليونانية، ثم طغت عليهم موجات جديدة من الهمج أهل الشمال وحالت بينهم وبين المدنية .(٢)

وإلى شمال « إبيروس » على ساحل البحر الأدرياتى تقع اليريا (Illyria) ، وكانت بلاداً قليلة السكان أهلها من الرعاة، وعلى الجانب الآخر من البحر الأدرياتى اغتصب اليونان السواحل الجنوبية من القبائل المستوطنة هناك ، وأدخلوا الحضارة فى ايطاليا . وكان من وراء جبال الألب الغاليون• وفى الطرف الغربى من البحر الأبيض تقع أسبانيا ، وكانت قد تمدنت إلى حد ما على يد الفينيقيين والقرطاجيين حين أنشأ اليونان سنة• ٥٥ ق‹م مستعمرتهم فى أمبورياس (Ampurias) وكانت قرطاجة (Carthage) تقع على ساحل أفريقيا أمام صقلية

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٢) وهيب سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، ص ٨٤ .